

براءة يوسف ومريم في القرآن الكريم (دراسة موازنة)

أ.م. د. اسراء ربيع عبيد

الجامعة المستنصرية، كلية التربية، قسم علوم القرآن

Isaaro77@gmail.com

الملخص

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

جاء هذا البحث ليلسط الضوء على قصة كل من يوسف ومريم بإيجاز مع الوقوف على وجه المقارنة بينهما، والوقوف على براءتهما من خلال النصوص القرآنية فكلاهما قد تعرض لافتراءات وطعن في الشرف والعفة والطهارة مع الفارق بين الطاعنين فيوسف طعن واقتري عليه من قوم الملك الذين نشأ بينهم في مصر، وأما مريم فكان الطعن الذي تعرضت له من قومها وحاصل القول ان كلاهما بريء مما رُمي به كما اثبت ذلك القرآن الكريم.

الكلمات المفتاحية: براءة، سورة يوسف، سورة مريم

The Innocence of Yusuf and Maryam in the Holy Qur'an (Balancing Study)

Dr. Esraa Rabie Obaid

Mustansiriyah University, College of Education, Department of Quran Sciences

Abstract

Praise be to God and prayer and peace be upon the Messenger of Allah. This research came to shed light on the story of Joseph and Mary briefly, with comparison between them, and their innocence through the Qur'anic texts. Egypt, and as for Mary, it was the slander she was subjected to from her people. To sum up, they are both innocent of what they were accused of, as the Holy Qur'an proves.

Keywords: Bara'ah, Surah Yusuf, Surah Maryam

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله واصحابه الطيبين الطاهرين، أما بعد فالقرآن الكريم حافل بالحديث عن انبياء الله واصفيائه مبيناً لنا قصصهم وموضحاً العبرة منها، وتتفاوت تلك القصص ما بين اسهاب وإيجاز، ومن بين الذين سلط القرآن الضوء عليهم نبيه يوسف عليه السلام ومريم بنت عمران، وقد جاءت قصة يوسف مفصلة في سورة واحدة تحمل اسمه، اما قصة مريم فقد وردت في سور عديدة إلا ان اكثر السور فصلت القول فيها هي سورة آل عمران وسورة تحمل اسم مريم عليها السلام، وكان لي في هذا البحث المتواضع وقفات مع قصتيهما وعرض براءتهما مما اتهما به. وقد قمت بتقسيم البحث على مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة، حيث تضمن المبحث الاول وقفات مع قصة يوسف والثاني وقفات مع قصة مريم وجاء المبحث الثالث بعنوان براءة يوسف ومريم مما اتهما به ووردت ذلك بخاتمة ذكرت فيها اهم النتائج

المبحث الاول

وقفات مع قصة يوسف عليه السلام

هو يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم السلام.

" كان يوسف جميل الصورة أثيراً عند ابيه، يخصه بقسط عظيم من محبته، وكان ذلك سبباً في حقد اخوته عليه، وسبباً في محنته التي كانت خير وبركة عليه " (٤٣) وهو سليل اسرة مباركة، روى البخاري عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم " الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم " (٤٤).

وقد ورد اسم يوسف عليه السلام في القرآن الكريم في سبع وعشرين موضعاً، خمس وعشرون في سورة يوسف التي تناولت قصته عليه السلام من اولها الى آخرها، وذكر في سورة الانعام مرة قال ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمَنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٤٥) وذكر اسمه مرة واحدة في سورة غافر قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴾ (٤٦).

تبدأ قصة يوسف عليه السلام بذكر الرؤيا لابييه، وطلب ابيه منه بأن لا يقصص الرؤيا على اخوته خوفاً عليه من كيد اخوته له وحقدهم وتذكير يعقوب ليوسف عليهما السلام بنعمة الله عليهما وعلى آبائهم ابراهيم واسحاق قال ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُنمِّئُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٤٧) بعد ذلك تسجل لنا الآيات تأمر اخوة يوسف عليه، وزعمهم ان يعقوب يفضل يوسف وأخيه عليهم، لتقودهم وسوسة الشيطان الى التفكير بقتله للتخلص منه، أو تركه في الصحراء وحيداً ثم يقوم احدهم ويقترح بعدم قتله، والقاءه في غيابات بئر لياخذه بعض التجار بعيداً عنهم، واخيراً اتفقوا على الأخذ بهذا الرأي.

قال تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمَسْأَلِينَ * إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهٌ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْفُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ (٤٨)

ثم بدأ الاخوة بمراودة اباهم عن يوسف وطلبوا منه ان يذهب معهم الى الصيد وادعوا انهم حريصون عليه وانهم يريدون مصلحته، ويتعهدون لأبيهم بإعادته سالماً، فيوافق يعقوب على ذهابه معهم. (٤٩) قال تعالى ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسَلْنَا مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُوا لَنْ نَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾ (٥٠).

ذهبوا به ونفذوا مؤامرتهم الشنيعة بحق هذا الطفل البريء الذي لا يعلم ما يريدونه له، فألقى الله سبحانه في روعه انه سيعيش ويخبر اخوته بما فعلوه معه وذلك من تأييده ونصرته لأنبيائه، وذلك أنيسه في غيابة الجب. (٥١)

" ثم يسجل القرآن منظر الاخوة المتآمرين عندما عادوا الى ابيهم باكين في وقت العشاء، وتبريرهم ما جرى ليوسف وادعائهم ان الذنب أكله ". (٥٢)

وهنا ادرك يعقوب عليه السلام انهم قد دبروا له مكيدة وصارحهم بأن نفوسهم قد زينت لهم منكرًا، وانه سيبصير صبراً جميلاً بلا جزع أو ضجر مستعيناً بالله " (٥٣) وبهذا ايقر يعقوب ان يوسف في محنة وفوض أمره الله سبحانه ثم تنتقل السورة لتقص علينا محنة جديدة يمر بها يوسف عليه السلام حيث تبدأ قصة المحنة الثانية عندما أتت سيارة فأدلوها فخرج غلام جميل، ثم قاموا ببيعه بثمن بخس وذلك " لانهم التقطوه، والملتقط للشيء متهاون به، لا يبالي بأي شيء يبيعه، أو لأنهم خافوا ان يظهر المستحق فينزعه من يدهم، فلا جرم باعوه بأوكس الاثمان ". (٥٤)

ثم بعد ذلك بيع يوسف عليه السلام لعزير مصر، وقد تحول الى غلام رقيق في بيت هذا المسؤول الكبير حيث اوصى العزيز امرأته بهذا الغلام، واستبشر فيه خيراً، وقد شبَّ يوسف في بيته وآتاه الله الحكمة والعلم. (٥٥)

في هذه الاثناء بدأت امرأة العزيز تعجب به لجماله وقد افتنتت به وكان جماله سبباً في محنته، فبدأت تراوده وتدعوه للفاحشة صراحة، حيث غلقت الابواب، وقالت هيت لك قال تعالى ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْاَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّٰهِ اِنَّهُ رَبِّيْ اَحْسَنُ مَتَوَايِ اِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظّٰلِمُوْنَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا اَنْ رَّآى بُرْهَانَ رَبِّهٖ كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوْءَ وَالْفَحْشَآءَ اِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِيْنَ * وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَّالْفَايَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ اَرَادَ بِاَهْلِكَ سُوءًا اِلَّا اَنْ يُسَجَّنَ اَوْ عَذَابٌ اَلِيْمٌ * قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِيْ عَنْ نَفْسِيْ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ اَهْلِهَا اِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكٰذِبِيْنَ * وَاِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ * فَلَمَّا رَاى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ اِنَّهُ مِنْ كٰذِبِيْنَ اِنْ كٰذِبُكَ عَظِيْمٌ * يُوْسُفُ اَعْرِضْ عَن هٰذَا وَاسْتَغْفِرِيْ لِذَنْبِكَ اِنَّكَ كُنْتِ مِنَ الْخٰطِئِيْنَ * وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِيْنَةِ امْرَاَتُ الْعَزِيْزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهٖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا اِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلٰلٍ مُّبِيْنٍ ﴿ ٥٦﴾

الآيات تشير صراحة الى دعوتها له يقول سيد قطب أي تعال وهلم واقبل تلك دعوة واضحة من امرأة العزيز بدعوتها يوسف عليه السلام لمواقعتها، وما تحمله تلك الكلمات من معنى لإغراءات سبقتها بتهيئة نفسها لذلك والملاطفة بالترين. (٥٧)

لكن يوسف عليه السلام تجاوز هذه المحنة بقوة ايمانه بالله عز وجل وتقواه وعفته، فعصمه الله من الفتنة. ثم بعد ذلك ينتشر خبرها في المدينة وصارت حديث مجالس النسوة، فلما وصلها خبر النسوة اللاتي يتحدثن عنها قامت بدعوتهن وتهيئة المكان لهن، ثم طلبت من يوسف الخروج عليهن، فلما راه النسوة اكبرنه ووصفنه بأنه ليس من البشر وانما هو الملائكة لجمال وجهه وحسن منظره وهيئته، فتركن اللوم وساعدن امرأة العزيز في الاستمرار على مرادته وشجعنها على ذلك، فكان ردها انها لن تتركه حتى يستجيب لها أو تدخله السجن، فأثر يوسف عليه السلام دخول السجن على اجابتها لطلبها قال تعالى ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِيْنَةِ امْرَاَتُ الْعَزِيْزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهٖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا اِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلٰلٍ مُّبِيْنٍ ﴿ ٥٨﴾ وبذلك بدأت المحنة الثالثة في حياة يوسف عليه السلام بدخوله السجن ظلماً حيث سُجِنَ بعدما ثبتت برأته، ودخل معه السجن فتيتان، وبدأ يوسف يدعوها الى عبادة الله الواحد القهار وطلب من احدهما ان يذكره عند سيده عندما يخرج من السجن، ونسي الناجي من الفتيتان ذكر يوسف عند سيده فلبث يوسف في السجن بضع سنين قال تعالى ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَاُوْا الْاٰیٰتِ لَا يَسْجُنُوْهُ حَتّٰى حِيْنَ * وَدَخَلَ مَعَهُ السّٰجِنُ فَتَيَانِ قَالَ اٰحَدُهُمَا اِنِّيْ اَرَانِيْ اَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْاٰخَرُ اِنِّيْ اَرَانِيْ اَحْمِلُ فَوْقَ رَاسِيْ خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَاوِيلِهٖ اِنَّا نَرٰكَ مِنَ الْمُحْسِنِيْنَ * قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهٖ اِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَاوِيلِهٖ قَبْلَ اَنْ يَأْتِيَكُمَا ذٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِيْ رَبِّيْ اِنِّيْ تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُوْنَ بِاللّٰهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كٰفِرُوْنَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِيْ اِيْرَآهِمِمْ وَاِسْحَاقَ وَيَعْقُوْبَ مَا كَانَ لَنَا اَنْ نُّشْرِكَ بِاللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ ذٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللّٰهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلٰكِنْ اَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُوْنَ * يَا صَاحِبِي السّٰجِنِ اَرْتَابٌ مُّتَّفَرَّقُوْنَ خَيْرٌ اَمْ اللّٰهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِهٖ اِلَّا اَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوْهَا اَنْتُمْ وَاٰبَاؤُكُمْ مَا اَنْزَلَ اللّٰهُ بِهَا مِنْ سُلْطٰنٍ اِنْ الْحُكْمُ اِلَّا لِلّٰهِ اَمَرَ اَلَّا تَعْبُدُوْا اِلَّا اِيَّاهُ ذٰلِكَ الدِّيْنُ الْقَيِّمُ وَلٰكِنْ اَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُوْنَ * يَا صَاحِبِي السّٰجِنِ اَمَّا اَحَدُكُمْ فَيَسْقِيْ رَبِّهٖ خَمْرًا وَاَمَّا الْاٰخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَاسِهٖ فَضَيِّحْ لِاَمْرِ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ * وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ اَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِيْ عِنْدَ رَبِّكَ فَاَنْسَاهُ الشَّيْطٰنُ ذَكَرَ رَبِّهٖ فَلَبِثَ فِي السّٰجِنِ بِضْعَ سِنِيْنَ ﴿ ٥٩﴾

وتمضي الايام والسنون ويوسف في السجن الى ان يرى الملك رؤيا لم يستطيع احد تفسيرها له وبعد ان عجز الجميع عن تفسير الرؤيا تذكر الفتى الناجي يوسف عليه السلام وطلب منهم ان يرسلوه الى يوسف فيقص الفتى الرؤيا على يوسف ويقوم بتأويلها قال تعالى ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ اِنِّيْ اَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَاٰخَرَ يَابِسَاتٍ يَا اَيُّهَا الْمَلَأُ اَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ اِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُوْنَ * قَالُوْا اَضْغَاثُ اَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَاوِيْلِ الْاَحْلَامِ بِعَالَمِيْنَ * وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ اُمَّةٍ اَنَا اَنْبِئُكُمْ بِتَاوِيلِهٖ فَاَرْسَلُوْا * يُوْسُفُ اَيُّهَا الصّٰدِقُ اَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَاٰخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي اَرْجِعُ اِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُوْنَ * قَالَ تَزْرَعُوْنَ سَبْعَ سِنِيْنَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوْهُ فِي سُنْبُلِهٖ اِلَّا قَلِيْلًا مِمَّا تَأْكُلُوْنَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ اِلَّا قَلِيْلًا مِمَّا تُحْصِنُوْنَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُوْنَ ﴿ ٦٠﴾

قال الشيخ السعدي " ان يوسف عليه السلام لو عبر عن الرؤيا ابتداءً قبل ان تعرض على الملاء من قوم الملك وعلمائهم فيعجزوا عنها لم يكن لها ذلك الوقع عند الملك ولكن لما عرضها عليهم فعجزوا عن الجواب وكان الملك مهتماً لها غاية الاهتمام فعبورها

يوسف وقعت عندهم موقعا عظيماً^(٦٠) فيعجب الملك بتأويل يوسف للرؤيا عند ذلك طلب الملك يوسف، لكن يوسف طلب إعادة التحقيق في قضيته، ليخرج بريئاً وليس متهماً^(٦١).

ارسل الملك الى يوسف ليجعله مقرباً منه لا يشاركه به أحد ويختاره ليكون اميناً على خزائن الارض، لأمانته وعفته وصدقه وعلمه.^(٦٢) قال تعالى ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾^(٦٣) بعد الكرم والنعم التي وقعت على يوسف من الملك، تسجل الآيات قدم أخوته الى مصر لطلب الطعام فعرفهم يوسف عليه السلام وهم لم يعرفونه فأكرمهم وطلب منهم ان يأتوه بأخ لهم من أبيهم في المرة القادمة وكان هذا شرطاً منه للتجارة معهم، فكان جوابهم بأنه سيرادون اباهم عنه لإحضاره الى مصر، وطلب يوسف من فتياته ان يردوا بضاعة اخوته في رحالهم حتى اذا رجعوا الى اهلهم يعرفون ان اهلهم ردت اليهم.

ثم تسجل لنا الآيات مشهد عودة الرجال الى ابيهم، واخبارهم له بما جرى معهم وأنه طلب منهم احضار اخيهم في المرة القادمة والا فلا يوجد كيل، لكن اباهم بداية رفض ذلك وخاف عليه وقال لهم ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَبِيرٌ حَافِظٌ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٦٤) ثم وافق على ذهابه معهم بعد ان اتوه موثقاً من الله، ولما وصلوا الى مصر كان يوسف قد اعد لها خطة بتدبير من الله سبحانه ليحتفظ بأخيه عنده حيث وضع السقاية في رحل أخيه ثم نادى نادياً ايها العير انكم لسارقون فرجعوا اليهم وقالوا ماذا تفقدون، فأخبروهم بفقدان صواع الملك، فأقسم اخوة يوسف على انهم لم يأتوا ليفسدوا في الأرض وما كانوا سارقين، فقالوا لهم وما جزء من وجدنا ضاللتنا عنده، قالوا جزاؤه من وجد عنده فهو جزاؤه، فأخذ يوسف أخاه حسب شريعة يعقوب بعد ذلك بدأ اخوة يوسف يتوسلون اليه ليترك اخاهم وقالوا له ان له اباً شيخاً كبيراً فاتركه لأجله وخذ احداً منا مكانه، فرفض يوسف ذلك، بعد ذلك رجع الرجال الى ابيهم واخبروه بما جرى معهم، فما كان جواب الأب المؤمن المحتسب إلا ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِّرْ جَمِيلٌ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَا عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ تَفَقَّأً تَذَكَّرَ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَىٰ اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٦٥)

بعد ذلك طلب الأب من ابنائه ان يرجعوا الى مصر للبحث عن يوسف واخوته، وفعلاً يعود الاخوة الى مصر للمرة الثالثة ووقفوا امام العزيز ولسان حالهم ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلُنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾^(٦٦)

اشفق عليهم كثيراً وقرر ان يخبرهم بحقيقته ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾^(٦٧)

عند ذلك تنبه الاخوة وعرفوا ان العزيز هو يوسف عليه السلام وان الله قد آثره عليهم وانهم كانوا مخطئين، فعفى يوسف عنهم وطلب منهم ان يذهبوا بقميصه الى ابيه ويلقوه على وجهه حتى يأت بصيراً ثم يأتوا بأهلهم اجمعين قال تعالى ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ * وَرَفَعَ أَبْوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رَبِّيَ حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾^(٦٨) دخلوا جميعاً على يوسف وسجد له ابواه واخوته بعد ذلك توجه يوسف الى ربه شاكراً وحامداً له على نعمه وفضله قال تعالى ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾^(٦٩).

المبحث الثاني

وقفات مع قصة مريم عليها السلام

مريم بنت عمران، وهو من نسل داود عليه السلام، ويرجع اصله الى ابراهيم عليه السلام وكان عمران صاحب صلاة بني

اسرائيل في زمانه.^(١)

" وكان عمران رجلاً صالحاً، وكانت له زوجة سالحة طيبة طاهرة خيرة تقية وفيّة مطيعة لزوجها، ومطيعة لربها "^(٢)

ومريم عليها السلام خير امرأة من نساء اليهود ولدت لأسرة اصطفاه الله على العالمين قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٣) قال ابن كثير "يخبر المولى انه اختار هذه البيوت على سائر اهل الارض "^(٤) وقال

البروسوي " المراد بالعالمين اهل زمان كل واحد منهم أي اصطفى كل واحد منهم على عالمي زمانهم " (٥) (وآل عمران) هم من آل ابراهيم ولكنهم خصوا بالذكر تشريفاً وتكريماً لهم وهو من باب ذكر الخاص بعد العام. (٦)

وقد ذكرت مريم عليها السلام في القرآن الكريم في اربع وثلاثين موضعاً في سور مختلفة فوردت حيناً مقرونة باسم ابنها عيسى ابن مريم ومرة ذكرت بـ (اخت هارون) واخرى (ابنة عمران) وظهرت في مواضع متعددة باسمها الصريح (مريم). وقد وردت قصتها في القرآن الكريم ابتداءً من حمل امها بها وتطهيرها الى ثبرأتها وقد عرضت سورتي آل عمران ومريم تفصيلات عن ذلك كله، كما ان سورة الانبياء ذكرت شيئاً من صفاتها وكذلك سورة التحريم اما سورة النساء فأشارت الى اتهام اليهود لها واما سورة المؤمنون فنبتت على ان الله جعلها وابنها آية اما بقية السور التي ورد ذكر مريم عليها السلام فيها لم تكن عنها خاصة وانما كانت للحديث عن ابنها.

والآن سأقف بشيء من التفصيل على قصتها في سورتي ال عمران ومريم على اعتبار انهما اكثر السور تفصيلاً في القصة وأبدأ الحديث عن سورة ال عمران قال تعالى ﴿إِذْ قَالَتْ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعْتُهَا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٧)

ذكرت هذه الآيات من سورة آل عمران دعاء امرأة عمران الله في ان يرزقها ولداً ذكراً ليكون خادماً في بيت المقدس، قال مجاهد " ان المحرر هو الخالص لله عز وجل لا يشوبه شيء من أمر الدنيا ولا يشغله شاغل عن عبادة الله تعالى " (٨) وذكر ابن عاشور، ان اطلاق المحرر هنا اطلاق تشريف لأنه حرر من اسر الدنيا وقيودها بجعله خالصاً لخدمة بيت المقدس. (٩)

وطلبت امرأت عمران من الله ان يتقبل منها ذلك فهو سميع لدعائها عليم بحالها و مقصودها. قال الرازي " (السميع) لتضريعي ودعائي وندائي (العليم) بما في ضميري وقلبي ونيبي " (١٠)

يقول سيد قطب عن دعاء ام مريم عليها السلام " وهذا الدعاء الخاشع من امرأة عمران بأن يتقبل منها ربه نذرهما - وهو فلذة كبدها - ينم عن ذلك الاسلام الخالص لله، والتوجه اليه والتحرر من كل قيد، والتجرد الا من ابتغاء قبوله ورضاه" (١١)

استجاب الله دعاء امرأت عمران فحملت ولما حان وقت الوضع تبين لها ان المولود انثى قال تعالى ﴿ فَلَمَّا وَضَعْتُهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (١٢) فتوجهت الى ربها معتردة " رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ " قال ابن كثير " وكانوا في ذلك الزمان يندرون لبيت المقدس خداماً من اولادهم " (١٣) ثم عرجت قائلة " وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ " أي في القوة والجلد في العبادة وخدمة المسجد الاقصى " (١٤).

ثم انها سمتها "مريم" ومعناه في لغتهم " قال المفسرون هي في لغتهم بمعنى العابدة، سمتها بذلك رجاءً وتفاؤلاً ان يكون فعلها مطابقاً لاسمها " (١٥)

ومازال دعاء ام مريم موصولاً حيث قالت ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (١٦) في هذه الآية دلالة على قبول ام مريم لقضاء الله وقدره في رزقها بالانثى وطلبت منه ان يحفظها وذريتها من كيد الشيطان، فاستجاب الله دعاءها ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ (١٧) وذكر الشيخ المراغي في تفسيره ان الله تقبل مريم من امها ورضي ان تكون محررة لعبادته وخدمة بيته على صغرها وانوثتها وكان التحرير لا يجوز الا لسلام قادر على خدمة بيت المقدس " (١٨) قال الزمخشري " (وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا) مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها في جميع احوالها " (١٩). وتتوالى نعم الله على مريم عليها السلام فهياً لها من يكفلها ويقوم عليها ويتولى امرها، وهو نبيه زكريا عليه السلام (وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا) (٢٠)

قال الزمخشري " قيل بنى زكريا لها محراباً في المسجد أي غرفة يصعد اليها بسلم، وقيل المحراب اشرف المجالس و مقدمها، كأنها وضعت في اشرف موضع من بيت المقدس " (٢١)

وهنا بدأت تظهر كرامات لمريم عليها السلام، فكلما دخل عليها زكريا وجد عندها طعاماً لم يقدمه هو لها، يقول ابن كثير " قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم: وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف " (٢٢) حينئذ سألتها زكريا

من اين لك يا مريم هذا الطعام فتجيبه انه رزق ساقه الله اليها، هنالك يتوجه زكريا الى الله عز وجل ان يرزقه ذرية طيبة قال القشيري " لما رأى كرامة الله سبحانه مع مريم ازداد يقيناً على يقين و رجاءً على رجاء فسأل الولد على كبر سنه، واجابته على ذلك كانت نقضاً للعادة " (٢٣).

بعد ذلك تعود آيات سورة آل عمران لتخبرنا ان الله اصطفى مريم وطهرها على نساء العالمين ويأمرها بأن تقنت وتسجد وتركع مع الراكعين، قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (٢٤) قال ابن كثير " ان الله قد اصطفاها أي اختارها لكثرة عبادتها وزهدها وشرفها وطهارتها من الأكدار والوساوس " (٢٥)

وفي ذات السياق بشرتها الملائكة بأنها ستكون أما حيث سيهبها الله ابناً وسيكون نبياً ورسولاً واخبرتها الملائكة ان ذلك من أمر الله، ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (٢٦)

اما سورة مريم فتحدثت عن حملها بعيسى عليه السلام، بدأت الآيات بمشهد ابتعاد مريم عن اهلها نحو الشرف فلما كانت بعيدة عنهم وحيدة، ارسل الله سبحانه لها جبريل عليه السلام فتمثل لها رجلاً بشراً وصارحها بأنه رسول من الله ليهبها غلاماً زكياً، فاستغربت وسألت عن كيفية انجابها الولد وهي الفتاة العذراء العفيفة فأخبرها ان هذا أمر الله. (٢٧) قال تعالى ﴿وَإِذْ كَفَّرَ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (٢٨) قال ابن كثير " اعتزلتهم وتحت عنهم وذهبت الى شرقي المسجد الاقصى " (٢٩).

قال القاسمي " اعتزلت وانفردت شرقي بيت المقدس لثلا يشغلها شاغل عن عبادة الله سبحانه " (٣٠) وجعلت بينها وبينهم سترًا حتى لا يشغلها شيء عن العبادة وفي ذلك زيادة في صفاء القلب وخالص لنية لله. من امور الدنيا في هذه الاثناء ارسل الله لها جبريل عليه السلام فتمثل امامها بصورة بشراً سويًا حسن الخلق، فكان رد فعل الطاهرة العفيفة النقية التقية اعوذ بالرحمن منك ان كنت تخاف الله وتتقيه فأجابها جبريل عليه السلام انما انا رسول الله اليك لأهب لك غلاماً زكياً .

قال الألوسي " أي لا أكون سبباً في هبته بالنفخ في الدرع، ويجوز ان يكون حكاية لقوله تعالى بتقدير لقول، أي ربك الذي قال: ارسلت هذا الملك لأهب لك " (٣١) فردت عليه الطاهرة كيف ألد ولم يمسنني بشر ولم اكن من البغي فأجابها جبريل عليه السلام، قال تعالى ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ (٣٢) هذا هو حكم ربك وهو القادر على ذلك ليحمله آية وعلامة ودلالة على قدرته سبحانه، وكان هذا الامر مقدراً عند ربك.

ونفخ جبريل فيها فحملت بعيسى ولقد طوى السياق القرآني في سورة مريم الحديث عن نفخ روح القدس عليه السلام في مريم، وجاء الحديث عنه في سورتي الانبياء والتحريم (٣٣) قال تعالى ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (٣٤) وقال تعالى ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ الْقَائِمِينَ﴾ (٣٥) حملت مريم عليها السلام بوليدها وابتعدت به عن قومها لكيلا يتعرضوا لها بسوء. قال تعالى ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا * فَوَازَاها مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ (٣٦)

عرضت الآيات لقطات هذا المشهد المؤثر متتابعة متعاقبة معطوف بعضها على بعض بحرف الفاء الذي يدل على الترتيب والتعقيب الفوري والتقدير: نفخ جبريل في مريم فخلق الله عيسى في رحمها فصار جنيناً حياً، فحملت مريم جنينها، فانتبذت به مكاناً من أهلها وذهبت به الى مكان قصي بعيد. (٣٧) فألجأها المخاض الى جذع النخلة، فأخذها الطلق وآلامه وعندما اشتد عليها الطلق تمننت الموت قبل هذا الحال وكانت نسياً منسياً.

قال الزمخشري " تمننت لو كانت شيئاً تافهاً لا يؤبه له، من شأنه وحقه ان ينسى في العادة، وقد نسي وطرح فوجد فيه النسيان الذي هو حقه وذلك لما لحقها من فرط الحياء من الناس على حكم العادة البشرية، لا كراهة لحكم الله أو لشدة التكليف عليها " (٣٨) فتدركها في تلك اللحظات رحمة الله الرحمن الرحيم قال تعالى ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهَرِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ (٣٩)

في هذه الحالة الأليمة التي أمت بمریم عليها السلام وفي تلك اللحظات العصبية التي مرت بها وهي تعاني من آلام المخاض والوحدة والوحشة والترقب لما ينتظرها من قومها حين يجدوا معها الوليد، في هذه الآلام الحسية والنفسية تدركها رحمة الله تعالى وجمیل الطافه فيتحول العسر الى يسر، والضيق الى سعة، ويولد عيسى عليه السلام وينطقه المولى عز وجل ويقول لها كما أخبر القرآن ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ (٤٠)

" ان الله هو الذي ألهم عيسى ان يقول لأمه هذا القول، وانطقه بهذا الكلام، وإلا ما ادراه بهذه اللحظة العلمية الحكيمة، ولم تمض على ولادته لحظات " (٤١) وبدأ عيسى يخبر أمه ويبشرها بأن الناس قد أسرى الجدول من تحتها ثم يوجهها بهز جذع النخلة حتى يتساقط عليها الرطب، قال ابن كثير " كان جذع النخلة يابساً، وقيل كانت نخلة مثمرة فألله أعلم. ويحتمل انها كانت نخلة لكنها لم تكن مثمرة إذ ذلك، لأن ميلاده كان في زمن الشتاء وليس ذاك وقت ثمر، وقد يفهم ذلك من قوله تعالى على سبيل الامتتان ﴿تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾ (٤٢)

فكلي واشربي مما وهبه الله اليك وطيبني نفساً وان رأيت احداً من البشر فأخبريهم انك صمتت نذراً للرحمن فلن اتكلم مع أحد. ثم بعد ذلك سنأتي مريم بوليدها الى قومها وحينئذ سيتموها قال تعالى ﴿فَأَنْتَ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتُ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعْيًّا * فَأُشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ ثم تأتي الآيات لتصرح ببراعتها وعفتها، وساقف على ذلك في المبحث القادم.

المبحث الثالث

صفاتها وبراعتها في القرآن الكريم

تحدثت في الصفحات السابقة عن قصة يوسف وقصة مريم بشيء من الايجاز ومن خلالها استطيع ان اقول ان هناك مواطن اللقاء بين الشخصيتين منها ان يوسف عليه السلام اتسم بصفات تكاد تكون تلك الصفات هي ذاتها اتسمت بها مريم وكان لهذه الصفات الأثر الأبرز في ثباتها تجاه ما مرّ به من محن وشدائد وهذه الصفات هي:-

١- الصديقية، يقول الله سبحانه وتعالى عن يوسف ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ (٧٠) ويقول سبحانه وتعالى في حق مريم ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ (٧١)

٢- الايمان والعبودية والخضوع لله، يقول الله سبحانه وتعالى بحق يوسف عليه السلام ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٧٢) ويقول سبحانه بحق مريم ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (٧٣).

٣- العفة يقول الله سبحانه بحق يوسف عليه السلام ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ زَادْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٧٤).

ويقول في مريم عليها السلام ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ وقال تعالى ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِتْقَانٌ مِنَ الْقَانِينِ﴾

٤- الصبر على الابتلاء، فقد امتحن يوسف عليه السلام في مواطن عديدة أولها صبره على كيد اخوته وصبره على امرأة العزيز، اما مريم فقد كانت صابرة في الامتحان الذي تعرضت له وهو كونها حملت من غير زوج وما تلا هذه المحنة من محنة المخاض وكذلك صبرها على افتراءات قومها.

تلك كانت ابرز الصفات التي اتصف بها كلا منهما.

والآن سأعرض كيف ثبت براءتهما بأدلة قرآنية واضحة الدلالة من ذلك ما اخبر به القرآن على لسان يوسف عليه السلام ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي﴾^(٧٥) وكذلك قوله ﴿قَالَ رَبِّ السَّجُنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَالْأَ تَصْرِفُ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(٧٦) وهو بريء باعتراف امرأة العزيز وزوجها كما نص على ذلك القرآن الكريم فقد قال على لسانها ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾^(٧٧) ثم في نهاية القصة صرحت بذلك مرة أخرى حيث يقول الله سبحانه وتعالى على لسانها ﴿الآن حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٧٨) اما اعتراف زوجها فقد سجله القرآن ايضاً حيث قال سبحانه على لسان زوجها ﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾^(٧٩) ثم سجل لنا القرآن اعترافاً آخر يدل على براءته عليه السلام وهو شهادة الشهود ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾^(٨٠) وقال ايضاً ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾^(٨١) وقبل هذه وتلك من الشهادات شهادة الله سبحانه وتعالى حيث يقول سبحانه ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(٨٢) بهذه الادلة الدامغة لا يستطيع أحد ان يشكك في عفة يوسف عليه السلام وبراعته مما اتهم به.

اما مريم عليها السلام فقد عرض لنا القرآن مجموعة من الادلة التي تثبت براءتها وعفتها، فمن تلك الادلة ان ولدت لأسرة اصطفىها الله على العالمين قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٨٣).

ثم ذكرت لنا بعض الآيات دعاء والدتها لها وتقبل الله سبحانه لمريم ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَدَرَيْتُهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٨٤) فضلاً عن ذلك ذكرته بعض الآيات من اصطفاء الله سبحانه ولها وتطهيرها قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾^(٨٥) ثم سجلت لنا الآيات مشاهد خوفها واستعدادتها برها من جبريل عليه السلام حين تمثل لها بشراً سوياً قال تعالى ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾^(٨٦) فلعفتها و طهارتها استعادت برها عندما رأت امامها رجل غريب.

ثم صرحت الآيات الكريمات بإحصانها وعفتها حيث قال تعالى ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٨٧) وقال تعالى ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ الْقَائِمِينَ﴾^(٨٨) واخيراً ينطق الله وليدها ليصدق ببراعة امه وطهارتها حيث قال سبحانه على لسان عيسى عليه السلام ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾^(٨٩) مما سبق يتضح ان كلاً من يوسف عليه السلام ومريم عليها السلام تثبتت براءتهما في القرآن الكريم بأدلة قطعية الدلالة.

الخاتمة

بعد هذه الوقفات الموجزة مع قصة يوسف ومريم استطعت ان اقف على الاتي

١- ان الله سبحانه وتعالى يختبر اوليائه واصفياءه بالامتحانات والابتلاءات ليتعظ بها سواهم من الناس

٢- ان يوسف عليه السلام ابتلي بابتلاءات عديدة وعلى مر حياته وكان في كل ذلك صابراً محتسباً

٣- ابتليت مريم بمحنة عظيمة وكانت في كل احوالها صابرة محتسبة عفيفة طاهرة

٤- يوسف ومريم رآهما الله في كتابه مما اتهم به وكانت ادلة براءتهما قطعية الدلالة لا مجال للتأويل فيها

الهوامش

- ١- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣٥٨/١
- ٢- المرأة في القصص القرآني، د. أحمد الشرقاوي: ٥٩٧/١
- ٣- سورة آل عمران: ٣٣
- ٤- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣٥٨/١
- ٥- روح البيان للبروسوي: ٥٢/٢
- ٦- المرأة في القصص القرآني، د. أحمد الشرقاوي: ٥٩٧/١
- ٧- سورة آل عمران: ٣٥-٣٧
- ٨- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٦٦/٤
- ٩- ينظر: التحرير والتنوير: لابن عاشور: ٢٣٢/٣
- ١٠- مفاتيح الغيب، للرازي: ٢٦/٨
- ١١- في ظلال القرآن، سيد قطب: ٣٩٢/١
- ١٢- سورة آل عمران: ٣٦
- ١٣- قصص الانبياء، لابن كثير: ٥٤٩
- ١٤- تفسير القرآن العظيم: لابن كثير: ٣٥٩ / ١
- ١٥- محاسن التأويل للقاسمي: ٩١ / ٤
- ١٦- سورة آل عمران: ٣٦
- ١٧- سورة آل عمران: ٣٦
- ١٨- تفسير المراغي: ١٤٥/١
- ١٩- الكشاف: للزمخشري: ٣٥٨/١
- ٢٠- سورة آل عمران: ٣٧
- ٢١- المصدر السابق: ٣٥٨ / ١
- ٢٢- تفسير القرآن العظيم: ٣٦٠/١
- ٢٣- لطائف الاشارات للششيرى ١١١
- ٢٤- سورة آل عمران: ٤٢-٤٣
- ٢٥- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣٦٢/١
- ٢٦- سورة آل عمران: ٤٥-٤٨
- ٢٧- القصص القرآني عرض وقائع وتحليل احداث: عبدالفتاح الخالدي: ١٦٤/٢
- ٢٨- سورة مريم: ١٦-١٧
- ٢٩- تفسير القرآن العظيم: لابن كثير: ٣/ ١١٤
- ٣٠- ينظر: محاسن التأويل للقاسمي: ١١٥/١١
- ٣١- روح المعاني: للأوسى: ١٦ / ٧٧
- ٣٢- سورة مريم: ٢١
- ٣٣- المرأة في القصص القرآني: الشرقاوي: ٦٨٥/١
- ٣٤- سورة الانبياء: ٩١
- ٣٥- سورة التحريم: ١٢
- ٣٦- سورة مريم: ٢٢-٢٦
- ٣٧- ينظر: القصص القرآني عرض وقائع وتحليل احداث: ٢٩٣/٢- ٢٤٥
- ٣٨- الكشاف للزمخشري: ١١/٣
- ٣٩- سورة مريم: ٢٤-٢٦
- ٤٠- مفاتيح الغيب، للرازي: ٢٠٤/٢
- ٤١- القصص القرآني: الخالدي: ٢٥٢ / ٢
- ٤٢- قصص الانبياء: لابن كثير: ٥٦٥-٥٦٦
- ٤٣- الدخيل في قصة يوسف عليه السلام: د. علي حسن السيد رضوان، ص٢٦، بحث منشور -جامعة الكويت
- ٤٤- صحيح البخاري رقم الحديث: ٣٣٨٢
- ٤٥- سورة الانعام: ٨٤
- ٤٦- سورة غافل: ٣٤
- ٤٧- سورة يوسف: ٤-٦
- ٤٨- سورة يوسف: ٧-١٠
- ٤٩- ينظر: القصص القرآني عرض وقائع وتحليل احداث: ٨/١

- ٥٠- سورة يوسف: ١١-١٤
 ٥١- ينظر: معالم التنزيل، للبغوي، ٤/ ٢٢٢
 ٥٢- القصص القرآني: ٨٠/١
 ٥٣- ينظر: معالم التنزيل، للبغوي، ٤/ ٢٢٢
 ٥٤- مفاتيح الغيب، للرازي: ٢/ ١١٠
 ٥٥- ينظر: القصص القرآني عرض وقائع وتحليل احداث: الخالدي، ٢/ ٨١
 ٥٦- سورة يوسف: ٢٣-٣٠
 ٥٧- ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب: ٤/ ٣٠٠، التفسير الوسيط، د. وهبة الزحيلي، ٢/ ١٢٠٢
 ٥٨- سورة يوسف: ٣٠
 ٥٩- سورة يوسف: ٣٥-٤٢
 ٦٠- سورة يوسف: ٤٣-٤٩
 ٦١- ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ٤٦١
 ٦٢- ينظر: القصص القرآني عرض وقائع وتحليل احداث: الخالدي: ****
 ٦٣- المرأة في القصص القرآني: ١/ ٣٢٦
 ٦٤- سورة يوسف: ٤٣
 ٦٥- سورة يوسف: ٨٣-٨٦
 ٦٦- سورة يوسف: ٨٨
 ٦٧- سورة يوسف: ٨٩
 ٦٨- سورة يوسف: ٩٩-١٠٠
 ٦٩- سورة يوسف: ١٠١
 ٧٠- سورة يوسف: ٤٦
 ٧١- سورة المائدة: ٧٥
 ٧٢- سورة يوسف: ٣٨
 ٧٣- سورة آل عمران: ٤٢-٤٣
 ٧٤- سورة يوسف: ٣٢-٣٣
 ٧٥- سورة يوسف: ٢٦
 ٧٦- سورة يوسف: ٣٣
 ٧٧- سورة يوسف: ٣٢
 ٧٨- سورة يوسف: ٥٤
 ٧٩- سورة يوسف: ٢٨-٢٩
 ٨٠- سورة يوسف: ٢٦
 ٨١- سورة يوسف: ٢٨
 ٨٢- سورة يوسف: ٢٤
 ٨٣- سورة آل عمران: ٣٣
 ٨٤- سورة آل عمران: ٣٦-٣٧
 ٨٥- سورة آل عمران: ٤٢
 ٨٦- سورة مريم: ١٦-١٧
 ٨٧- سورة الانبياء: ٩
 ٨٨- سورة التحريم: ١٢
 ٨٩- سورة مريم: ٣٠